



تاريخ الاستلام: 2024/10/01. تاريخ القبول: 2024/12/04.

الملخص:

يتناول هذا المقال أسباب ومجريات ونتائج حملتي دوكين ضد مدينة الجزائر سنتي 1682-1683، ترجع أسباب هاتين الحملتين إلى الداي إسماعيل باشا الذي أرسل إلى الملك الفرنسي رسالة توضح طبيعة العلاقة بين الطرفين، مبرزا فيها نوايا الجزائر في إرساء السلم والصّح، وحثّ فيها الملك الفرنسي لعدم التعرض للجزائريين في البحر وأن الإيالة تستقبل السفن الفرنسية في موانئها أحسن استقبال، إلا أنّ الفرنسيين قابلوا هذه الأسس بتجاوزات خطيرة تمثلت في أسر الجزائريين، فما كان على الجزائر إلا إعلان الحرب ضد فرنسا للرد على هذه التجاوزات، فقام الملك الشمس (Le rois soleil) بشن حملتين على الجزائر بقيادة أبرز ضباطه وهو أبراهام دوكين (Abraham Duquesne) الذي قام بقصف المدينة بالمدافع سنتي 1682 و1683، وبالرغم من الاضرار التي لحقت بالجزائريين إلا أنّ دوكين عاد خائبا لميناء طولون دون تحقيق أهدافه نتيجة المقاومة الشرسة التي أبداها الجزائريون، ما دفع بالفرنسيين سنة 1684 إلى عقد اتفاقية سلم مع الجزائر صاغين عرفت باتفاقية دوتورفيل.

الكلمات المفتاحية: حملتا دوكين، لويس الرابع عشر، بابا حسن، ميزومورطو، الأب القنصل لوفاشي، مدفع القنصلية، دوتورفيل.

Abstract:

This article discusses the causes, events and results of Duquesne's two campaigns against the city of Algiers in 1682-1683. The causes of these two campaigns go back to Dey Ismail Pasha, who sent a letter to the French king explaining the nature of the relationship between the two parties, highlighting Algeria's intentions to establish peace and reconciliation, and urging the French king not to attack the Algerians at sea and that the state would receive French ships in its ports with the best reception. However, the French met these foundations with serious transgressions represented by the capture of Algerians, so Algeria had no choice but to declare war on France to respond to these transgressions. The Sun King (Le rois soleil) launched two campaigns against Algiers led by his most prominent officer, Abraham Duquesne, who bombarded the city with cannons in 1682 and 1683. Despite the damage inflicted on the Algerians, Duquesne returned disappointed to the port of Toulon without achieving his goals as a result of the fierce resistance he showed. Algerians, which prompted the French in 1684 to conclude a peace agreement with Algeria, known as the Treaty of Tourville.

Keywords :

,duquesne's campaigns, louis 14, baba hassan, mizomorto, consul levacher ,the consul's canon ,de tourville

حملتا دوكين على الجزائر 1683-1682

The duquesne campaigns in algiers 1682-1683

جودي زكريا/ المركز الوطني
للدراسات والبحث في التاريخ
العسكري الجزائري

الجزائر

ishakusmiste37@gmail.com

المؤلف المرسل:



كانت العلاقات الجزائرية الفرنسية إبان القرن السابع عشر تتراوح بين السلم تارة والحرب تارة أخرى، حيث أبرم الطرفان عدة معاهدات توطر أسس العلاقات بين الإيالة الجزائرية وفرنسا قبل أول حملة فرنسية على الجزائر "جيجل" سنة 1664 وبعدها، حيث كانت هذه العلاقات تخص الجانب السياسي والتجاري والعسكري، فالجزائر كانت تحاول تمتين هذه العلاقة لتكون في مصلحة الطرفين مقارنة بفرنسا التي حددتها طبيعة سياسة الملك لويس الرابع عشر الاستعمارية اتجاه الجزائر لعلمه بخيرات وثروات الإيالة من خلال جواسيس الباستيون Bastion مراكز صيد المرجان في الشرق الجزائري التي كانت في ظاهرها تختص في هذا المجال إلا أنها في حقيقة الأمر كانت تحاول أن تجعل هذه المراكز للتجسس لصالح فرنسا، والعامل الثاني هو الحقد الذي كان يكتنه لويس الرابع عشر للدين الإسلامي ويعتبر هزيمة الجزائر ضد فرنسا هي هزيمة للإسلام ضد المسيحية، وهذا ما جعل الملك "الشمس" لإرسال حملتين سنتي 1682 و1683 ضد الجزائر، فكيف كانت العلاقات بين فرنسا والإيالة قبل الحملتين؟ مجريات الحملتين؟ نتائجهما؟ وانعكاساتهما على الطرفين؟

1- تدهور العلاقات الجزائرية الفرنسية قبل الحملتين

يعود سبب تدهور العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر إلى عدم التزام فرنسا بالقواعد التي حددت من قبل الجانبين خاصة الجانب الجزائري، وهذا ما تبينه الرسالة المبعوثة من طرف الباشا إسماعيل إلى لويس الرابع عشر 14 louis بعد تنصيب قنصل جديد فرنسي في الإيالة المؤرخة ب 23 سبتمبر 1674، وقد جاء فيها: "... يجمعنا بكم السلم، أنتم فقط دون البلدان الأخرى، إلا أن سفنكم تستقبل رعايا البلدان التي تعتبر من أعدائنا، كما نحذركم أننا سنأسر الرعايا التابعين للدول المعادية لنا دون التعرض للفرنسيين أو سلعمهم، وهذا إذا وجدنا أكثر من اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الأجانب في سفنكم، كما نعلمكم بوجود رعايا فرنسيين في سفن: ليفورن، جنوة، البرتغال، إسبانيا، هولندا ومالطا، وإذا وجدناهم في هذه السفن فسنبقوم بأسرهم لأنهم يقاتلون في هذه السفن، ولن نعتبرهم من رعاياكم".

حيث أكد الباشا في هذه الرسالة على أن للجزائر الحق في أسر هؤلاء ما داموا يُظهرون البلدان المعادية للإيالة: "كما أنهم منذ عشرين سنة أو ثلاثين سنة هاجروا إلى هذه البلدان وتزوجوا هناك، ويخدمون أعدائنا ويقومون بالقرصنة معهم، ما يخول لنا الحق في أسرهم، أيضا من جانبكم إذا وجدتم شخصا على متن سفن أعدائكم ينسب نفسه للجزائر فلن نعترف به". ويؤكد الباشا إسماعيل على حسن نية الجزائريين في إرساء علاقة طيبة مع نظرائهم الفرنسيين باستقبال سفنهم في موانئ الجزائر: "كما نرحب بسفنكم التي ترسو في ميناء الجزائر للحصول على الماء أو البسكويت والمواد التموينية التي يحتاجونها"، إلا أنه يحذر من



مغبة إيواء أحد الأسرى الفارين من الإيالة في السفن الفرنسية، أو أن تقوم هذه الأخيرة بأسر أحد الأتراك الفارين من البلدان المعادية للجزائر: "إلا أننا لن نتسامح مع سفنكم إذا ما قامت بإيواء أحد الأسرى الفارين من الإيالة. كما نعلمكم أننا لن نقبل منكم أن تأسروا أحدا من الأتراك الفارين من جنوة، ليفورن، إسبانيا، لاجئنا إليكم بحكم السلم الذي يجمعنا ..."¹.

ما نستشفه من رسالة الباشا أن هذه التحذيرات كانت مستندة إلى وقائع خطيرة، كان الفرنسيون سببا فيها، فيما يخص قضية الأسرى سواء الجزائريين الموجودين في الأجفان الفرنسية أو الأوروبيين التابعين لدول تعتبر معادية لإيالة الجزائر التي كانت تحتجزهم، إلا أن السفن الفرنسية التي ترسو في ميناء الجزائر، تقوم بإيوائهم وتهريبهم مستغلين التعامل الحسن الذي كان يحظى به الأسرى من طرف الجزائريين، وذلك عبر السماح لهم بالتنقل والتّزه حيث ما أرادوا خارج أوقات عملهم².

أما الأسرى الجزائريون الذين كان عددهم اثنان وعشرون محتجزا في مارسيليا، فقد عبّر لويس الرابع عشر عن رغبته بإجراء صفقة تبادل مع الأسرى الفرنسيين الذين كانوا بنفس العدد، إضافة إلى حجز الفرنسيين لسفينة جزائرية بطاقمها الذي بلغ تعدادها اثنا عشر فردا، قامت بالاستيلاء على غليوطة هولندية، حيث وعد الفارس أرفيو (Le Chevalier d'Arvieux) برسالته لداي الجزائر بإرجاعهم مع غنيمتهم³. وعلى إثر هذه التّصرفات التي كانت سببا في تعنت الفرنسيين في إرجاع الأسرى و تماطل لويس الرابع عشر ووزرائه على إجابة شكاوي الجزائريين، قرّر الدّاي والديوان إعلان الحرب ضدّ فرنسا بتاريخ 18 أكتوبر 1681⁴، فاستولى الرّياس الجزائريون على تسع وعشرين سفينة فرنسية وأسروا ثلاثمائة فرنسي، انتهز الإنجليز فرصة قيام الحرب بين فرنسا والجزائر، فأبرموا معاهدة مع هذه الأخيرة، كادت تكون كلّها لصالحها⁵، ولم يكن قرار إعلان الحرب قرارا سهلا على الجزائر، بحكم العلاقة السّياسية والعسكرية التي كانت تجمعها بفرنسا، كونها حليفا أو على الأقل صديقا مهمّا ضدّ إسبانيا، كما كانت موردا مهما للعتاد الحربي والبحري. أمّا اقتصاديا، فقد كان الجزائريون بحاجة إلى مدخل للسّوق الفرنسية بحكم تواجد حصن الباستيون (le Bastion) في الشّرق الجزائري كمركز تجاري والذي كان يدفع "إتاوة" سنوية إلى الإيالة وهو المبلغ التي تحتاجه لدفع أجور الانكشارية⁶.

أما الجانب الفرنسي، فقد كانت له أهداف من وراء الحملتين وهذا ما نستنتجه من رسالة ديسو متعهد الباستيون موجهة للدّاي بابا حسن وهي كالآتي:

تحرير الأسرى الفرنسيين سواء الذين أسروا من على متن السفن الفرنسية أو السفن المعادية للإيالة، وهذا دون مقابل مع إرجاع الأسلحة التي كانت بحوزتهم أثناء أسرههم وتعويضهم بدفع ثمن الخسائر، التي لحقت بهم



بعد إعلان القطيعة، كما يشترط الفرنسيون على الجزائريين إرسال مبعوثين إلى فرنسا لطلب "العفو" من الملك لإعلانهم الحرب.⁷

2- حملة دوكن الأولى سنة 1682 (أنظر الصورة رقم 1)

1- تجهيزات الحملة الفرنسية سنة 1682 وتحصينات الجزائر:

انطلقت الحملة الفرنسية على الجزائر من مينائي طولون (Toulon) وبريست (Brest) بقيادة أبراهام دوكن بتاريخ 01 رجب 1093هـ/ 12 جوان 1682م، بثلاث سفن حراقة وثلاث سفن نقل، سفينتين شرايعيتين. أما دو فورانس (de forans) انطلق من بريست بسفينة النجمة (L'étoile) وخمس غليوبات (Galiotes)، لحق بدوكن بتاريخ 20 جوان بالقرب من فورمنتيرة (Formentera) إحدى جزر البليار الصغيرة، لحق بتورفيل (Tourville) في منطقة بين مدينة شرشال والجزائر، وكانت تجهيزات الحملة حين وصولها حسب صاحب مخطوط "الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة" مكونة من: خمس عشرة سفينة كورفيت (corvette) وبعد أيام قليلة لحقتها خمس عشرة سفينة أخرى وخمس عشرة حراقة Brulot وخمس غليوبات محملة بقنابل المدافع فكانت مجموعها ستون سفينة⁸. كما عرفت فرنسا تطورا في الصناعة العسكرية البحرية، إذ قامت بإدراج سفن غليوطة مجهزة بمدافع قام بصنعها رونو إلساغاري (Reneau d'liçagaray)⁹.

أما مدينة الجزائر فكانت محمية بثلاثة حصون (حصن الإنجليز، حصن باب الواد، حصن باب عزون)، التي كانت تحمي المدينة على طول الساحل. أما بالقرب من المدينة فهناك جزيرة صغيرة بها حصن البينيون (Pegnon) التي كانت محتلة من طرف الإسبان، والتي يربطها بالمدينة رصيف، أين يوجد برج الفنار الذي به ثلاث بطاريات طبانات التي تحمي الميناء¹⁰.

2- مجريات الحملة الأولى:

جاء في كتاب الزهرة النيرة لصاحبه ابن رقية التلمساني أن الحملة الفرنسية قامت في البداية بالهجوم على مدينة شرشال " ... فأول ما بدأ اللعين بالحرب، مشى بسفائنه وغربته إلى مدينة شرشال وحاربهم وقابل اللعين أهل شرشال ولم يمت من أهل شرشال ولو نفس واحدة ومات من الملاعين أكثر من ألفي نفس ..."¹¹، حيث ظهر أميرال البحرية الفرنسية قرب مدينة شرشال بتاريخ 25 جويلية فبدأ بقصف المدينة حين وصوله، إذ قام بتدمير الحصن الموجود في الشاطئ في ساعات قليلة، وأحرق سفينتين في ساحل المدينة¹².

انتقل دوكن إلى مدينة الجزائر بتاريخ 26 أوت، وما إن وصل بدأ بقنبلة المدينة، لم يبق الجزائريون مكتوفي الأيدي بل حاولوا تحت قيادة الداي بابا حسن والرياس بالهجوم على السفن الفرنسية بتاريخ 3 سبتمبر، قام



الفرنسيون بصدّه، أرسل الديوان القنصل الفرنسي الأب لوفاشي Le vacher**** لقاء الحملة للتفاوض إلا أنّ الاقتراحات التي جاء بها قوبلت بالرفض، عاود الفرنسيون قصف المدينة الذي استمرّ حتى تاريخ 12 سبتمبر. وفي الأخير قرّر قائد الحملة الرجوع إلى فرنسا بتاريخ 13 سبتمبر بعد أن خشي سوء الأحوال الجوية، فعادت الحملة إلى فرنسا دون تحقيق الأهداف التي سطرها لويس الرابع عشر¹³.

3- نتائج الحملة الأولى

تكبّدت الحملة الفرنسية على الجزائر منذ وصولها إلى مدينة شرشال خسائر جسيمة في الأرواح، حيث قُتل بالقرب من مدينة شرشال ألف فرنسي، في حين لم يُقتل من الجزائريين أيّ أحد، ولم يكتف الجزائريون بالدفاع بل قام الرّياس بأمر من بابا حسن بالهجوم على الفرنسيين، حيث أسروا سفينة محمّلة بالموونة تابعة للجيش الفرنسي على متنها خمسين فرنسيا يقودهم ضابط رفيع مكلف بالتموين. كان لهذا الهجوم الأثر الإيجابي لدى الجزائريين الذين عبّروا عن فرحتهم عكس الفرنسيين الذين شعروا بالغضب¹⁴.

بهذا النّصر المبين الذي حقّقه الجزائريون أرسلوا رسالة قويّة للفرنسيين من خلال هذا الهجوم مفادها أن القوّات الجزائرية على استعداد ليس للدّفاع فقط بل حتى الهجوم وإرباك العدو، وأن هجوم الفرنسيين على شرشال لم يؤثر على قدرات البحرية الجزائرية. أمّا مدينة الجزائر، فقد شهدت خسائر كثيرة في الأرواح وبنيات السّكان نتيجة القصف المتواصل عليها من قبل الفرنسيين، وهذا ما أخبرنا به صاحب كتاب الزّهرة النّيرة "...ومكث الملاعين على تلك الحالة إلى اللّيلة الثالثة من شعبان، فعند نصف اللّيل قربوا الحويلار إلى الجزائر، ورموا قدرمئة وخمسين بومبة، كلّ بومبة في الثّقل قنطار واحد، وهذّموا قدرمائي دار، وسقطت منها بومبة واحدة في الجامع الجديد، وأخرى في الجامع الكبير، واستشهد من المسلمين قدر عشرين نفسا". وتابع صاحب المخطوط وصف القصف على المدينة وحجم الخسائر البشرية والمادية "...وبعد ليلتين من ليلة الجمعة، قربوا الحويلار أيضا، ورموا ثمانية وسبعين بومبة، ولم يصل للمدينة غير ثلاث بومبات، وانهدمت بها حانوت واحد، ودار واحدة وحمام، وبعد هذه اللّيلة قربوا لها مرار، فلم يصل منها شيء للجزائر، فعند ذلك رجع الملاعين إلى بلادهم خاسرين، ومات من الملاعين خلق كثير خصوصا من المرضى، والحمد لله ربّ العالمين"¹⁵. أرسل الدّاي في يوم 4 سبتمبر الأب لوفاشي القنصل الفرنسي لعقد الصّلح مع الفرنسيين إلا أنّ دوكين لم يرد سماعه، وأصرّ على مواصلة قصف المدينة والذي تسبّب في استشهاد خمسين جزائريا وتدمير أكثر من خمسين بيتا، ثم قامت غليوطات الحملة بالهجوم على ميناء الجزائر بقصفه بالمدافع، قرّر دوكين قائد الحملة مغادرة السّواحل الجزائرية خشية من تدهور الأحوال الجوية¹⁶.

رغم الخسائر في الأرواح والمباني التي لحقت بمدينة الجزائر إلا أنّ دوكين أبحر نحو طولون خائبا، إذ لم يُحقّق الأهداف التي سطرها لويس الرابع عشر، حيث لم يستطع تحرير الأسرى الفرنسيين بقوة السّلاح



والدليل على ذلك ما أصاب هؤلاء من الوباء الذي كان منتشرًا في المدينة ومقتل تسعمائة منهم، وهذا ما نستشفه من رسالة للأب القنصل لوفاشي¹⁷. ولم يُقدّم الجزائريون الاعتذار عن إعلانهم الحرب بسبب تجاوزات الفرنسيين، ولم يتحصّل هؤلاء على التعويضات التي اشترطوها على الجزائر، والمتمثلة في تعويض الرعايا الفرنسيين الذين تضرّروا منذ إعلان الحرب حسب تقديرات الفرنسيين¹⁸.

3- حملة دوكن الثانية 1683 (أنظر الصّورة رقم 2)

1- استعدادات الحملة:

أبحر دوكن من ميناء طولون اتجاه الجزائر بتاريخ 6 ماي 1683 بعشرين سفينة أو فرقاطة، سبع غليونيات، إثنين من السّفن الصّغيرة "حراقة"، ثلاثين سفينة نقل (Flutes)، سفن الطّريدة (tartane)، وست عشرة سفينة من الشّواني "Galères" لحقت بسفن الحملة، وعند الخروج من الميناء فاجأهم عاصفة تسبّبت في غرق بعض القوارب وأضرار جسيمة في قوارب أخرى، وكان لزاما على دوكن التّوقف لإصلاحها، أدّت هذه العاصفة إلى تأخّر كبير، حيث ظهرت السّفن الفرنسية في السّواحل الجزائرية بتاريخ 18 جوان 1683¹⁹ أين ظلّ الأسطول الفرنسي مدّة أكثر من شهر في البحر للوصول إلى السّاحل الجزائري.

2- مجريات الحملة الثّانية:

يذكر التّلمساني صاحب مخطوط الزّهرة الثّيرة مجريات هذه الحملة "... ففي اللّيلة الأولى من رجب الفرد رموا قدرستين بومبة، وفي اللّيلة الثّانية منه رموا إلى البلد وإلى المرسى قدر مائة وعشرين بومبة، وفي هاتين اللّيلتين لم يمت أحد من المسلمين بالبومبة، وبمدافع الأبراج مات كثير من النّصارى، وسقط في اللّيلة الثّانية بومبتان في دار الحاكم بابا حسن التي في باب الجزيرة وانهدمت بها عرصتان مذهبتان في تلك الدّار..."²⁰.

لم يدعن بابا حسن لشروط الفرنسيين في بادئ الأمر إلّا أنّه مع استمرار القصف قرّر أن يعقد صفقة مع الفرنسيين، فقام بإرسال القنصل الأب لوفاشي برفقة مترجم وضابط للتّفاوض مع دوكن، إذ لم يستقبل هذا الأخير الأب لوفاشي استقبالا حسنا حسب متعهد الباستيون دوسو (Duseault)، كما يبين ردّه عن عزمه مواصلة الحرب وقصف المدينة إذ أخبر المفاوضين أنّه كان الأجدر بهم أن يقوموا بتحرير الأسرى الفرنسيين قبل التّفاوض، فقام بابا حسن بإبرام صفقة مع دوكن، حيث قام بتسليم ضابطان من البحرية الجزائرية إلى الفرنسيين وهما "علي" و"حاجي حسين ميزومورطو" (Mezzomorto) اللّذان كانا يعتبران من أشدّ أعدائه، حيث كلّف القنصل لوفاشي بإعادة المفاوضين هايي (Hayet) وكامبس (Combes) وتقديم الرّهائن لدوكن كما عاود هذا الأخير نفس المعاملة مع القنصل الفرنسي بالإساءة إليه وعدم استقباله بصفة لائقة²¹، كما اشترط قائد البحرية الفرنسية من حاكم الجزائر تعويض مصاريف الحملة وتحرير الفرنسيين دون المطالبة



بالأسرى الجزائريين "ولكن أصالح معكم إذا أعطيتُموني جميع ما عندكم من أسارى الفرنسيين ومصرف
العمارة وهي ثلاثمائة ريال متاع الميزان، وقبلتم جميع ما اشترط عليكم"²².

تعتبر هذه الشُّروط مجحفة في حقّ الجزائريين وتبيّن نيّة الجانب الفرنسي في مواصلة الحرب وقصف المدينة
الذي خَلّف الكثير من الأضرار في البنايات والأرواح. وفي هذه الأثناء، تمكّن ميزومورطو أن يقنع دوكين بأنّه
يستطيع الوصول إلى اتفاق إن تمّ إطلاق سراحه، إلّا أنّه عند وصوله المدينة قام بقتل بابا حسن وعيّن كخليفة
له وبدأ بالدّفاع عن المدينة بإطلاق المدافع اتّجاه الفرنسيين، كما هدّد دوكين بأنّه سيقوم برمي الفرنسيين
المتواجدين في الجزائر في فوهات المدافع إذا ما استمرّ الأسطول في قصف المدينة، وهذا ما قام به الحاكم
الجديد للجزائر، وكان أوّل الفرنسيين الأب القنصل لوفاشي. وحسب المصادر الفرنسية فقد نُقِدَ هذا الحكم
على القنصل بعد أن قام أحد الإنجليز بإقناع الجزائريين أن لوفاشي يقوم بإرسال إشارات للأسطول الفرنسي،
وما هي إلّا ألبسة كانت معلّقة فوق بناية القنصل، كما شهد اثنين وعشرين فرنسيا نفس مصير القنصل²³.

يعتبر هذا ردّ فعل طبيعيّة للجزائريين، حيث جاء نتيجة تعنّت الجانب الفرنسي برفضه صفقة تبادل
بين الطّرفين وقصفه المدينة، ومنذ ذلك اليوم عرف المدفع الذي قذف به القنصل باسم القنصلية
(consulaire) استولى عليه الفرنسيون في حملة 1830 وحملوه إلى مدينة بريست (Brest) (أنظر الصّورة
رقم 3)، هدّد الجزائريون دوكين وطواقمه بنفس المصير، فاغتنموا سوء الأحوال الجويّة خلال شهر أكتوبر،
ورحلوا وخلفوا تورفيل (Tourville) لمواصلة الحصار مدة من الزّمن، أمّا دوكين فقام بمهاجمة جنوة عام
1684 ليعاقبها على تزويد الجزائر بالأسلحة، وراها بأكثر من أربع عشرة ألف قذيفة إلى أن اعتذرت، والتزمت
بإيقاف تعاملها مع الجزائر²⁴.

3- نتائج الحملة:

تسبّب القصف الفرنسي بالقنابل التي تزن كلّ منها بين اثني عشر وخمسة عشر رطلا في خسائر جسيمة
للمنازل في المدينة، أين تهدّم منها خمسمائة منزلا، وهُدّم عدد من المساجد وحمّام. أمّا الخسائر البشرية فلم
تكن مرتفعة لأن سكان المدينة قرّروا اللّجوء إلى الضواحي قبل بدء القصف، والذين قضوا جراء القصف أقلّ
بكثير من الذين ماتوا بالطّاعون الذي ضرب المدينة خلال الصّيف السّابق، كما يبين القنصل الإنجليزي ريكوت
(Recot) في رسالته للورد دارتموث (Dartmouth) الحالة التي كانت فيها المدينة "أنظر، كم هي قليلة المبالاة
التي أعطاهها هؤلاء النّاس إلى القنابل الفرنسية التي أعددها فكان حوالي ستة آلاف ... وأوفى المعلومات التي
حصلت عليها تقدر عدد الدّكاكين والمنازل التي هدمت بثمانية آلاف"²⁵. أمّا دي غرامون فقد ذكر الخسائر
التي تكبدها الجزائريون، فالبشرية أين وصل عدد القتلى من السّكان إلى ألف قتيل، ودُمرت مئات البيوتات
ومسجدين أو ثلاثة، وأحرقت ثلاث سفن تابعة للبحرية الجزائرية. أمّا الحملتين فقد كلّفتا الخزينة الفرنسية



خمسـة وعشرين مليون فرنك، ومقتل عشرين من الفرنسيين مع القنصل لوفاشي. أمّا الرّأي العام الفرنسي فلم يكن راضيا بنتيجة الحملة التي لم تحقّق أهدافها بتحرير الأسرى الفرنسيين، وهذا ما نستشفه من رسالة سينيولي (Seignelay) للماريشال دوستري (Destrés) متمنيا لو أنّ هذه الحملة وكّلت لهذا الأخير²⁶. أمّا محمد بن ميمون الجزائري صاحب كتاب "التّحفة المرضية"، فقد ذكر أن عدد القتلى من الجزائريين إثر قنبلة المدينة في هذه الحملة هو أربعمئة جزائرياً²⁷.

4- معاهدة دوتورفيل (tourville) سنة 1684:

لم يُحقّق قصف الفرنسي ضدّ الجزائر إلى ما كانت تهدف إليه، ولم تستسلم الجزائر لا عسكرياً ولا سياسياً بل زادت المقاومة التي تحلت بها إلى الاستمرار في مجابهة قصف المدينة مهما كانت التّكاليف، فأصبحت فرنسا بين خيارين، سواء الاستمرار في الحرب التي قد تنجر عنها الكثير من الآثار السّلبية خاصّة في الجانب التّجاري لا سيما المناطق الجنوبية من فرنسا التي كانت تعاني من جفاف، حيث كانت بحاجة شديدة لحبوب الجزائر، إلى جانب خوف فرنسا على تجارتها خاصّة بعد أن وقّعت الجزائر صلحاً مع إنجلترا وهولندا سنة 1681. أمّا الخيار الثّاني، فهو خيار السّلم وإبرام الصّلح من جديد لتحصل على ما لم تستطيع أن تصل إليه بقوة السّلاح²⁸.

اختار الفرنسيون الخيار الثّاني والذي صبّ في مصلحة التّجارة الفرنسية. كما يعود سبب هذا الخيار إلى العامل السّياسي، حيث كانت تستعد فرنسا للهجوم على جنوة سنة 1684 وهذا ما سبقنا ذكره لضمان حياد الجزائر، فقام لويس الرّابع عشر بإرسال ضابط البحرية دو تورفيل إلى الجزائر الذي أبحر من طولون في أواخر شهر مارس لإنهاء التّزاع باتفاقية مع الإيالة. وصل إلى الجزائر بتاريخ 2 أفريل، إذ استقبله متعهد الباستيون ديسو، وعند علمهم بوصوله أرسل الدّيوان إليه عشر من الرّياس في اليوم الموالي، فقام دو تورفيل بتحتيهم بإطلاق سبع طلقات مدفعية، وأرسل بدوره إلى الدّاي ضابطين، فسألهم عن شروط الملك لعقد الصّلح، فتم وضع بنود هذه الاتفاقية التي دامت مدة مناقشتها ستة أيام، وعرفت باتفاقية المائة سنة، كما قام الدّيوان بإرسال مبعوثين جزائريين لفرساي (Versailles) لتأكيد التّزام الدّاي بها²⁹. تضمّنت هذه المعاهدة 29 بنداً³⁰، حدّد ضوابط العلاقة بين الجزائر وفرنسا في الجانب العسكري وفيما يخصّ الأسرى من الطّرفين والجانب الدّبلوماسي.

1- الجانب العسكري³¹:

يقاف كلّ الأعمال العدائية في البحر والبر بين السّفن الفرنسية والجزائرية، وعندما تلتقي السّفن المجهّزة للحرب سواء كانت خرجت من ميناء الجزائر أو من أي ميناء آخر من الإيالة بالسّفن الفرنسية المزوّدة بجوازات ستترك لهذه الأخيرة حقّ التّنقل دون عرقلة ومساعدتها عند الحاجة، كما يرسل إليها إلّا قارب الذي يحمل



ضابطين وطاقم، ولا يدخل إليها إلا هذين الشخصين لتفتيشها، وسيتم تنفيذ نفس الإجراء مع السفن الجزائرية التي تزود بجوازات من القنصل الفرنسي، كما تستقبل كلاً السفن التجارية أو الحربية في موانئ البلدين، حيث يتم توفير لها كل ما تحتاجه بالسعر الجاري في السوق، وإذا هوجمت أي سفينة تجارية فرنسية فيتعين على أحد موانئ الإيالة أن تدافع عنها وتحميها من مدافع الحصون، كما تتعهد فرنسا بنفس المعاملة بشرط أن لا تقوم السفن الحربية الجزائرية بالاستيلاء على مراكب أعدائها على مسافة عشر فراسخ من الشواطئ الفرنسية، ويتم مساعدة كل السفن الفرنسية التي التجأت إلى شواطئ الجزائر سواء بسب سوء الأحوال الجوية أو نتيجة مطاردتها من طرف سفن معادية، ولن تفرض رسوماً أو إتاوات على السلع التي ما زلت إلى البر إلا إذا بيعت في موانئ الإيالة، كما لن تمنح مساعدة للسفن المغربية التي هي في حالة حرب مع فرنسا ولن تسمح لأي طرف بتجهيز السفن في موانئ الجزائر لمهاجمة فرنسا، إذا قامت السفن الجزائرية التي تجوب البحر في وقت إبرام الاتفاقية بالاستيلاء على سفن فرنسية فسترد هذه الأخيرة بكل حمولتها، ونفس الإجراء يتبع إذا حدث العكس.

2- قضية الأسرى³²:

يتم استرجاع كل الفرنسيين الذين أصبحوا أرقاء في الجزائر وأفراد الأوجاق في الأجفان الفرنسية (كمجذفين) حسب القوائم التي يتم تبادلها، ويتعهد ديسو متعهد الباستيون باستقدام هؤلاء الأسرى على مراكب مخصصة ويقوم الديوان برد الأسرى في نفس الوقت، كما يتم إطلاق كل الفرنسيين الذين تم أسرهم من طرف أعداء فرنسا واقتيدوا إلى الجزائر، كما يطلق سراح الرعايا الذين أسروا منذ 18 أكتوبر عام 1681 وشهر فبراير 1670 وهذا بعد زيارة دوتورفيل لسجون الإيالة الذي يتواجد بها الفرنسيون بدون دفع فدية، أما الذين تم أسرهم قبل 1670 فقد اتفق على شرائهم بدفع ثلاثمائة ليفر، كما اتفق الطرفان على منع أسر رعايا الجزائر وفرنسا سواء من على متن سفنهم أو على متن سفن أجنبية.

3- الجانب الدبلوماسي³³:

يمكن لإمبراطور فرنسا الاستمرار في اعتماد قنصل في الجزائر لمساعدة التجار الفرنسيين، كما يسمح له القيام بشعائر الدين المسيحي في منزله هو وكل المسيحيين، ويحظى الجزائريون بنفس المعاملة إذا ما وفدوا إلى فرنسا، كما يتميز القنصل بحق السبق مقارنة بغيره من القناصل والصلاحيات للفصل في النزاعات التي تنشأ بين الفرنسيين، ويحق له اختيار مترجم وسمسار له كامل الحرية في زيارة السفن الراسية في الميناء والعودة، وإذا حدث نزاع بين فرنسي وأحد الجزائريين يتم فصله على مستوى مجلس قضائي يحينه الباشا الداي والديوان أو قائد الميناء في المكان الذي حدث فيه النزاع، ولا يفرض على القنصل الفرنسي تسديد ديون التجار ما لم يتعهد بذلك كتابة، وترد كل أمتعة أي رعية فرنسي توفي في الجزائر للقنصل، كما يتم تطبيق نفس الإجراء

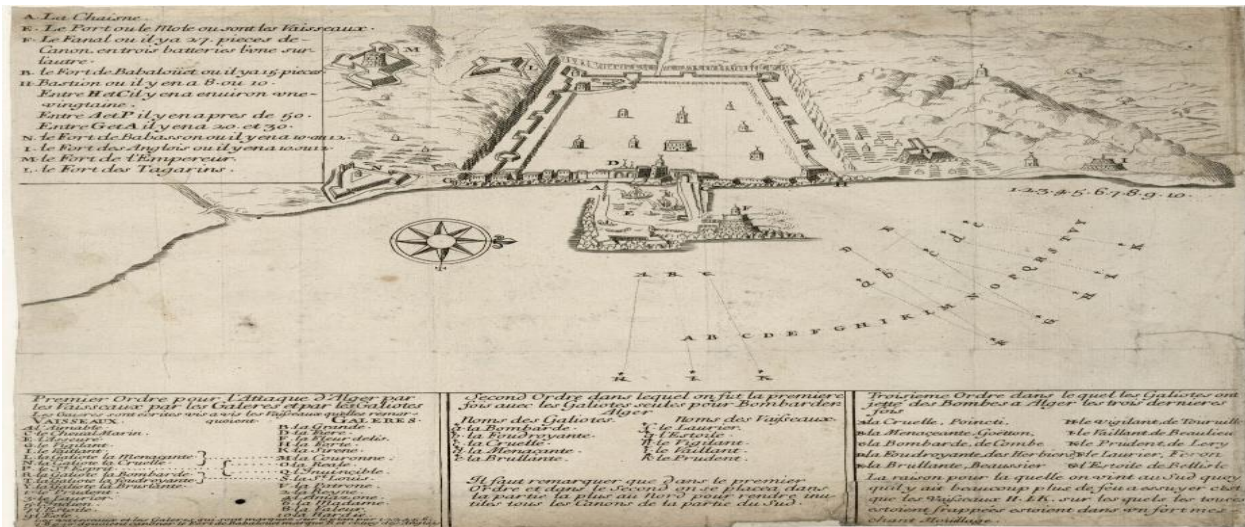


للجزائريين في فرنسا، ولا يعاقب أي فرنسي قام بضرب أحد من الجزائريين إلا بعد استدعاء القنصل ليدافع عنه، تقوم حصون وقلاع الجزائر بتحية أي سفينة فرنسية بإطلاق عدد من قذائف المدفع تناسب رتبة قائد السفينة ويكون الرد من هذه الأخيرة بنفس عدد القذائف. ونفس الشيء، يُراعى إذا التقت السفن في عرض البحر. نصّت المعاهدة على أحقية التجار الفرنسيين اللجوء إلى أي مكان من أرض الجزائر بدون أن يتعرضوا للإيقاف لمدة شهر.

الخاتمة

انتهت الحملتين على الجزائر بإبرام معاهدة سلم بين الطرفين سنة 1684 عرفت بمعاهدة دوتورفيل التي ضبّطت طبيعة العلاقات بين الجزائر وفرنسا، حيث فرضت الجزائر منطقتها على الفرنسيين في الجانب العسكري، حيث أدّت المقاومة الشرسة التي تشبّث بها الجزائريون إلى هزيمة دوكنين وعودته إلى طولون دون تحقيق أهداف لويس الرابع عشر بالرغم من الخسائر المادية والبشرية التي تكبدها الجزائريون إلا أنّ العبرة في الحروب بتحقيق الأهداف المسطرة وهذا ما لم يحققه الفرنسيون، وبالرغم من إبرام هذه المعاهدة إلا أنّ الفرنسيين أبانوا مرة أخرى عن نواياهم الاستعمارية بعد سنوات بشنّ حملة أخرى وهي حملة دوستري (Destré) سنة 1688.





الصورة رقم 01: مخطط للحملة الفرنسية سنة 1682 بقيادة دوكن.

[Http://: wikipedia.org](http://wikipedia.org)



الصورة رقم 02: مخطط للحملة الفرنسية بقيادة دوكن سنة 1683

المصدر: موقع <http://alfutuhat.com>



الصورة رقم 03: صورة لمذفع القنصلية أو بابا مرزوق في بريست الذي رمي بواسطته القنصل لوفاشي في الحملة الثانية سنة 1683

المصدر: موقع

<http://wikipedia.org>

الهوامش:

¹ chevalier d'Arvieux, **Mémoires du chevalier d'Arvieux, envoyé extraordinaire du Roy à la Porte, consul d'Alep, d'Alger, de Tripoli et autres**, tome 5, Charles-jean baptiste delespin, paris, 1735, pp 105, 108.

² جمال قنّان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، المؤسسة الوطنية للنشر، الجزائر، 2007، ص 84.

³ Eugène Plantet, **Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579-1833**, tome 1, Archives des affaires étrangères de la marine de la chambre de commerce de Marseille, paris, 1889, p 77.

⁴ Edward cat, **Petite Histoire de l'Algérie Tunisie Maroc**, tome 1, a.jourdan Edition , Alger, 1889, p 304.

⁵ محمد بن ميمون الجزائري، التّحفة المرضية في الدّولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، ط 2، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتّوزيع، الجزائر، 1981، ص 19.

⁶ جون ب. وولف، الجزائر وأوروبا، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 341.

⁷ Eugène Plantet, **Op.Cit**, pp 79, 84



⁸ **Chroniques de la régence d'Alger el-Zohra-el-nayerat**, traduction: Alphonse rousseau, imprimerie du gouvernement, Alger ,1841, pp 131-135.

⁹ Edward cat, **Op.cit**, p 304.

¹⁰ CH. De la roncière, **le bombardement d'Alger en 1683 d'après une relation inédite extrait du bulletin de la section de géographie**, imprimerie nationale, paris ,1916, p 8.

¹¹ جمال قنّان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث 1500-1830، مطبوعات وزارة المجاهدين، الجزائر، 1987، ص 147.

¹² Henri Delmas de Grammont, **Histoire d'Alger sous la domination turque "1515-1830"**, Ernest Leroux, paris, 1887, pp 248-249.

¹³ L. péchot, **Histoire de l'Afrique du nord avant 1830**, Gojosso, Alger, 1914, pp 92-93.

¹⁴ **Chroniques de la régence d'Alger el-Zohra-el-nayerat**, traduction: Alphonse rousseau, **Op.cit**, pp 132, 133.

¹⁵ محمّد بن محمّد بن عبد الرّحمان الجيلاني بن رقية التّلمساني، الزّهرة النّائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تعليق: خير الدّين سعدي الجزائري، أوراق ثقافية، 2017، ص ص 128-129.

¹⁶ Charles Féraud, **Histoire des villes de la province de Constantine "la calle "**, l'association ouvrière v. Aillaud et Cie, Alger ,1877, p 231.

¹⁷ **Ibid**, p 232.

¹⁸ جمال قنّان، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، طبعة خاصّة، مطبوعات وزارة المجاهدين، الجزائر، 2007، ص 89.

¹⁹ Henri Delmas de Grammont, **Relation entre la France et la régence d'Alger au 17^{ème} siècle**, Adolphe Jourdan, Alger ,1879, pp 263-264.

²⁰ ابن رقية التّلمساني، المصدر السّابق، ص 130.

²¹ Raymond Gleizes, **Jean le vacher vicaire apostolique et consule de France à Tunis et à Alger 1619-1683 d'après les documents contemporaine**, librairie Victor lecoffre, j.Gabalda Editeur, Paris ,1914, p 247.

²² ابن رقية التّلمساني، المصدر السّابق، ص 130.

²³ M. L'Abbe Léon Godard, **Soirées Algériennes**, A. Mame et Cie, imprimeurs- libraires, tours, 1857, p 230.

²⁴ يحيى بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 86.

²⁵ جون وولف، المرجع السّابق، ص 346.

²⁶ Henri Delmas de Grammont, **Op.cit**, p 265.

²⁷ محمّد بن ميمون الجزائري، المصدر السّابق، ص 20.

²⁸ جمال قنّان، المرجع السّابق، ص 97.

²⁹ J.Delarbre, **Tourville et la marine de son temps Notes, lettres et documents (1642-1701)** , L. Baudoin et Cie, paris, 1889, p 135.

³⁰ جمال قنّان، المرجع السّابق، ص ص 294-301.

³¹ نفسه.

³² نفسه.

³³ نفسه.

